

النقد ونقد الترجمة في العالم العربي

حمزة الزاوي / جامعة وهران

إن مقارنة النقد والترجمة في العالم العربي مقارنة لمجموعة من الإشكاليات الثقافية والفلسفية التي تشكل الهم الثقافي والإبداعي في ثقافتنا العربية الحديثة والمعاصرة.

فالمغامرة السردية الأولى بعد عصر النهضة بدأت بترجمة الآخر أو اقتباسه أو تعريبه كما أن الفعل الدرامي بدأ نفس البدايات تقريبا وكانت تجربة متميزة مع الرعيل الأول ويمكننا أن نشير إلى "المنفلوطي" للسرد الروائي و"القباني" بالنسبة للتجربة المسرحية ولعل الفعل النقدي ككتابة إبداعية كما يسلم بذلك الناقد مورييس بلانشو تأخرت قليلا مع بداية القرن العشرين خاصة في العشرينيات مع طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي" وكان ميلاد النقد العربي الحديث المرتبط بالمناهج الحديثة مرتبط كذلك بفعل القراءة والبعثات الدراسية أي بشكل من الأشكال بمعرفة وترجمة "النقد" الغربي.

إن الترجمة التي نلج من خلالها إلى عالم الأدب والإبداع الأدبي بمختلف أنواعه وأصنافه تضعنا في قلب العملية النقدية التي أفرزتها الحركة الإبداعية منذ أواسط القرن التاسع عشر. فحركة الترجمة لم تكن مصحوبة بنقد بنياتها الأساسية أي بمحاولة معرفة الأسس التي تقوم عليها خاصة أن أغلب تلك الحركة انحصرت في الترجمة "المنعزلة والمحدودة" المعتمدة على بعض الاجتهادات الفردية.

إن إشكالية وصعوبة الترجمة يقتضي منا مقارنة خاصة للحركة النقدية ثم بعد ذلك لنقد الترجمة ومدى أهمية ذلك في الفعل الثقافي العربي، خاصة وأن الإبداعية العربية في مجملها لم تتخط إلا نادرا ما هو مقروء أو مترجم لأن نقد الترجمة وترجمة النقد يندرج فيما يمكن تسميته بـ "بروتوكول القراءة"⁽¹⁾ الذي يلتقي مع قراءة وترجمة ثقافة الآخر وأدبه في نصوصه المتميزة.

I- النقد:

يعلن بارت في كتابه الهام النقد والحقيقة بأن النقد ليس هو العلم (2) والواقع أن هذه المقولة البارتيّة تعبر عن حقيقة العملية النقدية، لأنها تتموضع في قلب النقاش الدائر حول الموضوع. هذا الموقف هو موقف بين القديم والجديد، القديم بما يحويه من اتجاهات وممارسات نقدية. والجديد وما يبشر به ويروج له من تقنيات ومفاهيم ومصطلحات ونظريات نقدية. ليس النقد هو العلم، فالأول يعالج المعنى والآخر ينتجها. والمعالجة هذه، تتخذ اللغة أو ما يسميه بارت ما فوق اللغة -Meta Language (3) وهي الصيغة التي تعالج خطابا وتنتج خطابا آخر، لذلك فهو قول ثاني أو قول واصف يختلف باختلاف الأفراد واختلاف الثقافات والأزمنة. **أولاً:** لأن كل الأزمنة تختلف في أحكامها وتقييمها وقراءتها وإنتاج خطابها باختلاف المشكلات والأسئلة المطروحة عليها⁽⁴⁾. **ثانياً:** هناك ما هو دائم وما هو متغير بتغير العصور فما هو صالح اليوم لقراءة هذا النص أو ذاك يصبح غير مقنع غداً. وإذا كنا لا نريد أن ندخل هنا في استعراض لكافة اتجاهات النقد الغربي المعاصر واكتفينا بالتلميح إلى هذا الموقف النقدي. فإننا نعتقد أن مثل هذا الموقف يقترب من الصحة في تحديد النقد بوصفه يقع بين القراءة العادية وبين العلم الذي ينتج مفاهيم ومصطلحات قد يفيد منها النقد وهو ينتج خطاب على خطاب أو الذي هو الخطاب الأدبي بوصفه خطاب معقد ويحتمل عدة معالجات قد تكون متباينة حسب المرجعية التي تنتمي إليها. ويمكننا أن نحدد أربعة اتجاهات كبيرة وهي ليست وحيدة ولكنها المهيمنة على النقد الغربي المعاصر. الاتجاه الأول والمتمثل في النقد الوجودي مع سارتر وآزون. الاتجاه الثاني يتمثل في النقد الماركسي مع لوكاش، غولدمان، ماسري... الخ.

الاتجاه الثالث المرتكز على التحليل النفسي خاصة مع موران (شارل)، غاستون باشلار...
الاتجاه الرابع مع النقد البيوي بمختلف اتجاهاته.
ومعلوم أن هذه الاتجاهات النقدية وغيرها كثير ارتبطت واعتمدت على فلسفات حديثة ومعاصرة تمثل جوهر الثقافة والعقل الغربي. كذلك الاتجاهات النقدية التي كان لها أكبر الأثر في النقد الغربي مثل الشكلايين الروس وكتابات باختين وفراي وإيان وات وبول بينيشو...

II- إشكالية النقد العربي:

ما موقع النقد العربي اليوم؟، ما هي علاقته بالنقد الغربي؟، كيف ينتج خطابه؟ إجابتنا ستكون مكثفة وجد مخصصة.
يعترف د. محمد برادة في دراسته عن الناقد محمد مندور: "أن حصيلة النقد منذ بداية هذا القرن (يقصد بداية القرن العشرين) حصيلة عجفاء سواء في مجال تحليل الشروط الاجتماعية للإنتاج الأدبي أو في مجال الأبحاث اللسانية والجمالية....
ذلك أنه بالرغم من كثرة الرسائل الجامعية والدراسات المتخصصة في الأدب العربي، يبقى معظم هذه الكتابات منغلقة في مفاهيم ومناهج لا تاريخية وانطباعية. وإن كان هؤلاء الدارسون يكثرون من إعلان تشبثهم بالمبادئ "العلمية" خاصة في المقدمات و الخواتم".
و الواقع أن كلام الدكتور برادة ليس مبالغاً فيه، إن ما يسمى بأزمة النقد العربي منذ سنوات له ما يبرره، خاصة إذا استثنينا بعض الدراسات، ذلك أن هذه الإشكالية المرتبطة بالخطاب النقدي هي إشكالية متعددة. الشيء الذي أوحى للبعض باستعمال مصطلح "الأزمة".

ويمكننا أن نتناول هذه الإشكالية بوصفها إشكالية متعددة العناصر نكتفي هنا بذكر بعضها:

أولاً: إن ارتباط النقد العربي باتجاهات النقد الغربي هو ارتباط متخلف كما وأنه ارتباط إسقاطي متخلف لأنه لا يتعامل مع الأدوات النقدية الصادرة في الغرب في حينها ولكنه يتأخر عليها وبذلك تكون

أسئلته ونتائجه متجاوزة إسقاطي على أساس أن الممارسة النقدية عندنا غالبا ما تكون جاهلة بالأدوات المعرفية والمنهجية التي تستعملها وبذلك يتم إسقاطها بطريقة عشوائية على خطاب أدبي (أو ثقافي أو فلسفي.... الخ) يختلف اختلافا جوهريا على الخطاب الغربي كخطاب مهموم و مسكون بخلفيات اجتماعية و ثقافية معرفية و إبداعية خاصة به.

ثانيا: إن جانبا كبيرا من النقد العربي الحديث و المعاصر متخلف و مؤطر بالجهل المنهجي و المعرفي وهو ما يسميه احد المفكرين العرب بالنقد الوضعي النزعة⁽⁶⁾.

وهو نقد يغطي جزءا كبيرا من ما يمكن تسميته بالنقد الجامعي وكذا النقد الحر المنتج خارج أسوار الجامعات، إن إشكالية النقد العربي تكمن في انه لا يقيم أي وزن للتراكم العلمي الحاصل في مجال العلوم الإنسانية عند الآخر، وبذلك غالبا ما تكون نقدا انطباعيا بحثا.

إن النقد العربي باعتباره "ميتانص" لا يقيم حدودا بينه و بين النص الأول الذي ينكب على معالجته، بل التداخل بينه و بين النص المعالج هي السمة التي تطبع خطابه.

الأمر الذي أدى إلى اختلاط شبه كامل بين الخطاب الأول و الخطاب المقام عليه و كان من نتائج ذلك:

- إنتاج خطاب نقدي بطبيعة تلقينية Didactique إنه خطاب تعليمي وتلقيني لصاحب النص الأول خاصة.
- إنتاج خطاب تفسيري يتسم بالمدرسية يضع نفسه بمثابة وسيط رسمي بينه وبين القارئ.

ومع ذلك فإن الخطاب النقدي العربي لا يخلو من بعض الاستثناءات تعتبر علامات بارزة في مسارنا النقدي بدءا من " في الشعر الجاهلي"، "و مستقبل الثقافة في مصر" للدكتور طه حسين ومرورا. "في الثقافة المصرية" لمحمود أمين العالم و عبد العظيم أنيس و انتهاء بمجموعة من الكتابات النقدية الأخرى.

III- نقد الترجمة:

إن الترجمة كنص ثالث يندرج ضمن ما يسمى بالنقد الترجمي ومن الاختصاصات الحديثة النشأة والتي لا زالت في أطوارها الأولى حتى في النقد الغربي.

ورغم ما انتهت إليه الأعمال التأسيسية من دفاع عن مصطلح Traductologie وتنظير لمجالات الترجمات، والذي كان فتحا حقيقيا في مجاله إلا أن كل الاتجاهات في هذا المجال كمحاولات نظرية اتجهت و ركزت على البحث على مقارنة بين الأصل و الترجمة من أجل وصف طريقة المترجم و أسلوبه، لكن ذلك البحث يكون من وجهة نظر تقويمية تبحث عن الأخطاء و المزايا وأشكال التحوير و النقص و الزيادة و سوء الفهم و عكس المعنى إلى غير ذلك من عيوب الترجمة (7) وهو ما نجده عند ابرز الباحثين في هذا المجال و على رأسهم انطوان بيرمان و هنري ميشونيك و جورج ستاينر في حين أن الإشكالية الأساسية هي تلك التي قدمها لنا الفيلسوف الفرنسي بول ريكور في مجموعة صدرت قبيل وفاته بأشهر (سنة 2004) يعتبر ريكور أن الترجمة تعتمد أساسا على مجموعة من الخصائص التي تجعل منها رهانا صعبا بل مستحيلا في بعض الأحيان ويركز على ما يسميه فرويد "عمل الذاكرة" أو "عمل الحداد" و هي الخاصة العامة التي يجب أن تصاحب عملية الترجمة مشيرا إلى مساهمة والتر بنيمين في هذا المجال خاصة في نصه "مهمة المترجم" (8)

إن عمل الذاكرة يحيلنا إلى الحقل الثقافي الذي هو العنصر الأبرز في مصاحبة الترجمة وقبلها القراءة والتأويل الذي يمهّد لكل نص مترجم، وهنا لا يمكن للترجمة أن تفرز نصا مقبولا على مستوى اللغة و روح النص الأصلي إذا لم يكن المترجم يمتلك ليس فقط عبقرية اللغة الذي يترجم عنها بل الثقافة التي تحوي وتؤطر النص الأصلي عدى الشعر وترجمته التي تبقى بعيدة المنال.

وهو ما يؤكده ويتفق عليه اغلب الدارسين، لكن كيف تطرح المسألة في النقد العربي خاصة بعد كل ما اشرنا إليه، إن ما نسّميه بنقد

الترجمات في النقد العربي لم يتبلور بعد، كما و أن تلك الأعمال القليلة و المتواضعة لم تفرز ما يمكن أن يشكل تراكما كافيا في هذا المجال. فالترجمة في العالم العربي لا زالت محدودة، هذا لا يمنع تقديم بعض النماذج التي أثارت بعض الأسئلة حول الترجمة وآليات اشتغالها و بعض أوجه محدوديتها.

في مقدمته لكتاب "الإيديولوجيا العربية المعاصرة"، يضعنا الأستاذ العروي في صميم إشكالية الترجمة في العالم العربي و ذلك بمناسبة تقديمه لمجموعة من الملاحظات حول ترجمة هذا الكتاب في سبعينات القرن الماضي من طرف الأستاذ محمد عيتاني، فبعد الإشارة إلى الأخطاء الخطيرة التي وقع فيها المترجم والتي أدت إلى تحوير المعنى الأساسي للنص المترجم بل إلى تشويبه و ذلك بتقديم أدلة وأمثلة على ذلك يخلص العروي إلى مجموعة من الملاحظات الأساسية هي بمثابة محطات نقدية لفعل الترجمة في العالم العربي بل حتى لدى بعض المترجمين من غير العرب.

إن المترجمين العرب لا يتقنون العربية كأسلافهم، و لا يعرفون المتداول من لغات اليوم، بل لا يعودون مثل أسلافهم إلى المراجع التي تساعد على فهم مقاصد الكتاب المعاصرين.

يبدو وكأن المترجم العربي المعاصر يتناول القلم باليمنى والكتاب الذي يريد تعريبه باليسرى، مكتفيا بما في ذهنه من مفاهيم ومفردات، وإذا ما خانتها الذاكرة عاد إلى المنهل أو المورد (10)

رغم أن بعض الأحكام جاء قاسيا إلا أن العروي يضع ذلك ضمن ما يسميه بتحديث العقل العربي الذي يتطلب من المترجم كفاعل ثقافي يبتغي التحديث ويبحث عن عوامل "الغير" البعيدة والمعقدة والمسلحة بكافة أنواع المعرفة وأن يتحلى بالأسباب التي تؤهله لولوج تلك العوالم المعرفية و الثقافية.

أما د. جابر عصفور فيخصص صفحات طويلة للترجمة و نقدها في كتابه "أفاق العصر".

يتصدى الباحث إلى مجموعة من القضايا المرتبطة بالترجمة موضحا أفاق الترجمة من خلال الإشارة إلى مجموعة من الدراسات في

اتجاهات الترجمة و نظرياتها ككتابات د. سعيد علوش من المغرب و محمد ديداوي تونس و محمد عناني مصر إلى جانب مجموعة من الأبحاث و الدراسات اللافتة التي ظهرت ابتداء من تسعينات القرن الماضي والتي تم فيها توجيه الأنظار إلى ضرورة الترجمة كفعل ثقافي ملازم لولوج الحداثة والمعاصرة التي يسعى إليها العالم العربي، وفي هذا الإطار يحاول د. جابر عصفور أن يؤكد على طبيعة اللغة وحمولتها الثقافية و الحضارية في الوصول إل جوهر الفعل الترجمي من و إلى اللغة العربية أو العكس كما يتضح في "مدام بوقاري" لفلوبير، " الزين بركات" للغيطاني أو في ترجمة طه محمود لرأعة جويس "يوليسيز". فضرورة المعرفة العميقة لعبقرية كل لغة وجمالياتها الخاصة مفتاح لكل فتح في هذا المجال و"التي تجعل من الترجمة تفسيراً" تقييماً للعمل الأدبي المترجم، ومنها علم اللغة من المنظور الذي يناقش الآليات اللغوية لعملية الترجمة نفسها والمشكلات التي تلازمها على المستويات الدلالية والصوتية والنحوية والصرفية وأخيراً الهرمنوطيقا المعاصرة أو نظريات التأويل التي تغدو معها الترجمة عملية تفسير، تعكس موقف من يقوم بالترجمة من ناحية، و علاقته بالنص الأصل من ناحية ثانية، و علاقة النص المترجم بسياق الثقافة التي أنتجته وسياق الثقافة التي تعيد إنتاجه" (11)

الترجمة بهذا المعنى هي المثاقفة في أجل صورها لأنها تحيل الأنا على الآخر والعكس صحيح. وبهذا فإن احتضان اللغة والأفكار والثقافة والتخييل هو بالذات ما تسعى إليه محاولة ترجمة النص الأدبي أو الفلسفي أو الثقافي... وبذلك فإن عالمنا المعاصر بثقافته وفلسفته وإبداعاته وما يصاحب ذلك من "محاولات" ترجمية هو انعكاس لصدى الحداثة التي يريد العرب أن يعبروا إليها مع ما يصاحب ذلك من مطبات وعراقيل. ولعل النقد ونقد الترجمة في العالم العربي كفيل بفك شفرات ذلك الصراع الخفي والمعلن بين ثقافتين وعالمين من أجل البقاء والتموقع.

الإحالات

- 1) احمد المديني، في أصول الخطاب النقدي الجديد، دار الشؤون الثقافية العامة ط2، بغداد 1989 ص 6.
- 2) بارت رولان، النقد و الحقيقة ترجمة إبراهيم الخطيب، مجلة الكرمل عدد 11 ص 30.
- 3) Barthes .Roland .Essais critique .ED. Seuil Paris p.257.
- 4) زكي نجيب محمود، الفلسفة و النقد الأدبي، مجلة فصول الأدبي، مجلة فصول القاهرة عدد الأول 1983، المجلد الرابع ص 18.
- 5) برادة محمد، محمد مندور و تنظيم النقد العربي، دار الفكر القاهرة 1986 ص 8 .
- 6) Abdallah Laraoui. L'idiologie arabe contemporaine. ED. F. Ma Spero. Paris. 1977 p 191.
- 7) عبد الكبير الشرقاوي، شعرية الترجمة (الملحمة اليونانية في الأدب العربي) دار توبقال للنشر المغرب ط I ص 64.
- 8) بول ريكور، عن الترجمة، ترجمة حسين خمري، منشورات الاختلاف ط I الجزائر- بيروت 2008 ص 33.
- 9) G.Mounin-traduction-in encyclopaedia.universalis. Volume 16. P 232.233
- 10) عبد الله العروي، الإيديولوجيا العربية المعاصرة. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء المغرب ط II 1999 ص 7.
- 11) جابر عصفور، أفاق العصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1997 ص 226.